52

سلسلة الكتاب الأول

عبد الجواد الخنيفي

الخيط الأخير

شعر

منشورات وزارة الثقافة

الخيط الأخير
الإيداع القانوني : 2007/2039
ردمــــك : 9954-0-4119-2
منشورات وزارة الثقافة 2007
سحــب : مطبعة دار المناهل - 2007

52

الكتاب الأول

عبد الجواد الخنيفي

الخيط الأخير

شعر

الإهـــــداء

إلى روح والدي الغيمة التي رحلت في
وقت مبكر ...
وإلى والدتي الغيمة التي نرحل فيها ومعها
نحو أحلى السماوات

تقديـم

القصيدة خيط أول في نسيج الديوان ولا يكون الخيط الأخير فيه إلاّ وعدا صارما بأن عمليّة الخلق مستمرّة بإصرار لا يقاوم. عملية الخلق التي يجد الشاعر نفسه هي تبرير عاقل لوجوده. ذاك ما استشففته عبر قراءتي لهذا الديوان ، وذاك ما ألفت أن أحدسه في الكتابات الشعريّة الشابّة: الإصرار والعفويّة والمتابعة. الإصرار على اختيار الكينونة في الشعر، والعفويّة إعراب عن العنفوان المتشبّث بهذه الكينونة، والمتابعة الفاحصة التي بها تكتسب هذه الكينونة قوامها.

تضيق مساحة التواصل في هذا الديوان ثمّ تتّسع. تضيق حينما يتمّ التواصل من الأنا إلى الأنا وفيهما السائل والمجيب. وتتّسع حين يتواصل الأنا عبر إثارة هاجس وتوجّس المخاطب بتحفيزه على وضع علامة استفهام أمام كثير من الأحداث التي تبدو جديرة بأن تلتقطها عدسة الشاعر الرهيفة . وتزداد هذه المساحة اتّساعا حين يتواصل الأنا مع الآخرين . هذا التواصل بمختلف أشكاله يتحقّق عبر صور "سوريالية" إن بعدت عن المنطق المتداول فلا تنقصها اللمسة الشعريّة ، إذ هي وسيلتها في

تبرير خروجها عن السائد واقتحامها عالم التجريد المشعرن. هناك استبدال الثابت بالمتحوّل، والحقيقيّ المقنّن بالمجازيّ الخالي من القرينة، والاستعارة التقليديّة بالاستعارة الهاربة من المعيار . وهناك أيضا البحث عن تغيير العلاقات الثابتة التي تشدّ المادّة اللغويّة إلى تفريعاتها وتنويعاتها، بحيث تتغيّر المواقع وتتبدّل ، فكلّ ثابت يصبح قابلا للتحوّل . (يدي لأراك = اليد للّمس لا للرؤية . لم لا يصبح اللمس رؤية بالنيابة يتمّ بها الإدراك؟)، (جثّة الترائب = الترائب جزء عضويّ والجثة موت عامّ لكلّ الأعضاء . لم لا تكون الجثّة اسما آخر للجسد الحيّ ؟)، (ورق المتعة = المتعة إحساس يتنامى كلمّا انتشر. لم لا يورق ويخضلّ ويكون ذلك دلالة على اتّساع رقعته ؟) .

إنّ ضمير المتكلّم حاضر بكثرة في قصائد الديوان غير متسيّد عليها، إذ كثيرا ما تلعب ياء المتكلّم دور قفل الموشّح تنتهي به الفقرة الشعريّة. ضمير المتكلّم هو البوّابة التي يطلّ منها الشاعر على العالم . هو المحاور الذي يتبادل التجربة معه ، هو المنجم الذي تستقى منه الخبرة بالحياة وهي بعد في العنفوّان، أي في سنّ البحث عن المعرفة .

لأسلوب الفقرات الشذريّة في الديوان نكهة ممتعة ترتكز عليها خاصيّة التجريب فيه . وهي نكهة تمتدّ من المعيش اليوميّ وتتوالى متوغّلة في مجرياتها حتّى تربط بينها وبين دواخل الذات ، ممّا يؤكّد أنه في مستطاع الوجدان الفرديّ أن يستبطن الوجدان الجماعيّ دون أن يتخلّص من ضمير المتكلّم . (في رثاء الشاعر محمّد القيسي رجع. جشيّ لصدى الذات في الذوات الأخرى) .

يملك الشاعر كلّ شيء حتّى وهو لا يملك شيئا . ما يملكه في الحلم يفقده في الواقع . يعلم أنّ الملكيّة ونزعها (من أجل النفع العام) لعبة اللغة التي تناور من أجل بقائها معياريّة ، مع العلم أنّها وسيلته إلى فهم ما مضى وأداته الفعّالة التي يقوّض بها الراكد من أجل تشييد كيّان لا يتهيّب التجريب. ومع ذلك ، فهو فرح باحتراف مقامرة يستوي فيها الربح بالخسارة، ويكتفي منها بالتجربة التي تنتهي إلى كشف غير مسبوق إليه.

د. محمد السرغيني

غربــاء

رأيتهم
يعدُّون الغيْمَ
على حجارةِ العشبِ ،
ويعدُّون النَّبيذَ في النَّهْرِ .
رأيتهم
على الجدارِ
* قادمينَ من التَّعبِ ،
على أيَّامهمْ ثلجٌ ،
وعلى الأيدي نِساءْ .
رأيتهم
أفراساً تحمل

عناكبَ البئْرِ ،

وريشَ شتاءْ ،

لا يخسِرون

غير المطرِ

والنعاسِ

والحُبِّ .

مواعيد مع سعدي يوسف

1 – شاعر في منفى

خُطاهُ في الصَّهيلِ

وفي المقهى

يشربُ

صقِيع الصُّورِ

وتبغَ العواصِم
ويحنُّ إلى امرأةٍ

تقطع خُلوة الأرضِ

في اللَّيلِ الطَّويلِ .

2 – مباغتة

كلَّما مددْتُ يدي لأراكَ

يُفاجئُني الغيابُ

من شقوقِ الهواءِ

كلّما مرّتْ معاطفُ اللّيلِ

يُباغتني اليمُّ

بجثثِ الأصدقاءِ .

3 – هاوية

قوافلُ الحرير مصقولهْ

على سفوح الأرائكِ

وحدي معلّقٌ في نَفَسِ الجدارِ

وحدي . . . .

حُزمة حزنٍ

خلف عربةِ الهاويهْ.

4 – مــوت

هكذا يأتينا منكّسا كل الحقائبْ

يصافحنا

متوحّدين في العُريِ

هكذا . . .

تقتات دودتُهُ

برد الفكرةِ

وفراغَ الرُّوحِ

وجثّةَ الترائبِ .

ورق المتعــة

يطالعني

ضوئي السريُّ

من ممرٍّ بعيدٍ ،

يصوّب جمر غيمتي

على مطر غائب لاهبٍ

في دمي .

في لونِ هديلِي

خيول غاربةٌ ،

نخلٌ يتساقطُ

في عراء مداي ،

وفي جبال مطفأةٍ

لا تصل إلى ظلي .

ساعتي الباردةُ

لم تعد رحبةً

وحدائقُ الأهل

لم تعد

شموسا تأتي

في غبار أشيائِي .

دروبي العاريةُ

تعدو نحو جهات الأرضِ

خواتمَ شاسعةً

مخبوءةً في رؤى نومي ،

تترصد أقفالَ

عشبي

كأنّها موّالٌ يخضّرُ

على هواء سمائي ،

يحرس أصابعي من جدراني .

صوتي مالحٌ

والطُّيور تهاجرُ

في غير أوقاتها ،

خطاي لا تجدني

فوق الجسرِ

لأختم جناح قوافلي

بنعاسي .

لماذا تصبح أشجاري

عاتيةً

في ظُلمتي ؟

وتصير شواطئي

طاعنةً

بنباتِ الصَّهيلِ

في وردتي ؟

الأفقُ يرْتَبِكُ

في زُرقة يدي

وقبائلي تفْقِدُ

وجهها في وصاياي َ.

إلى أين تتجه بروحي

يا مهرجاني

المتسلّق فصول شتائي .

ها أنا

أراك نايا يطلعُ

من ورق متعتِي .

وها أنا أراني

أغيب بلا وجعٍ

أو حنينٍ

في غيب رغبتي .

ظلمة

"1"

هذَا الصَّباحُ ،
وارفٌ في غيمَةٍ من النّاياتِ .
في المنَاراتِ ،
يغْزلُ حصَى النّهْرِ .
راسخٌ في موجتهِ ،
تعلُو شرارتُها
سُهولَةُ الوديعاتِ .
وفي شرْفةِ هوائهِ ،
يحتسي وتراً من
الجمراتِ .

"2"

وصاياهُ :

وصايا الغاباتِ .

قناديلُ تستفيقُ

على غُبار مهْزوم .

ضفافٌ معتّقةٌ باليُبسِ .

مرايا مُعلّقةٌ

مسافرةٌ في النّصْلِ

حجرٌ لا يرتاحُ لضوءِ العشيّاتِ .

ريحٌ ماضيةٌ

في قوسٍ من اللّوثاتِ .

"3"

ضالعٌ فينا هذا الصّباحْ

وخبزُ اللهِ .

حالمٌ فينا يُتمُ الفراشاتِ .

الخوفُ مُلتحِمٌ بنا كالغريبِ

جارحٌ حبرُ الطّفولهْ

وقادمٌ إلينا

كلامُ السُّنبلات .

هذا الصّباحُ

لا صَباحْ!.

ضوء الغريب

ـ إلى إسماعيل أزيات ـ

كان يمضي نحو أطيافِ الضوءِ
وحيدا بعيدا في تُرابِ ظهيرتهِ .
بنحيبٍ باردٍ
بفتح أشياءَ حديقتهِ
على شتاءٍ لاهبٍ في مرايا الهواءِ
ويُخبىء في سياجِ نهارهِ
ظلاً مالحاً
ضاع في سريرتهِ .
وجهُهُ مُثقلٌ بالحزنِ والمنفَى
وهو يطوي رمالَ أسفارهِ ،
يحفر في نصلِ المساءاتْ

أصواتا متعبةً

تشقّقتْ غيما جارحاً .

جمرةٌ خضراءُ أيامُهُ

ورعشةُ دمِهِ

مفتوحةٌ بهديرها

على وصايا نهرِهِ .

كُنت أراهُ من سماءِ عتْمتِهِ

يخرجُ شجراً مُتطاولاً

آهلاً بنسيانهِ

يرمي بفصول حكايتهِ

لرماد في النجماتْ ،

ثم يطلُّ خفيفا على هواءِ يديهِ

من خريفِ الصّباحاتْ .

فدَاحَة/فاس كما كلمتني

-إلى الشاعر محمد السرغيني-

"1"

كلّما أمضي إلى نبض خيمتكِ ،
أرفع عن وجهي حريق العشبِ
وبشاشة الهواءِ .
أتصيّدُ في مُويْجاتك الخضرِ
حجري الصّقيلَ
مثل دمع الصباحِ .

"2"

على بابكِ وقفتْ روح الطيرِ ،
وقفتُ طويلا أعدُّ نخلك سعفاً سعفاً
وهو يسْري بخصْرِه النّحيلِ
على ساعدي .
يُشعل حبْلَ فسيفسائهِ على مهلٍ
ضاجّا بسرْوِ المكانِ .

"3"

هكذا ملْتِ على نافذتي
من سَهر الغرفةِ ،
وأنا أحتسي ومْضَ فجيعتي
وعبق البهاراتِ .
هكذا أترك لحمك الحُرَّ
يطعن تصاويري الأليفَةَ كسُبحة جدي .

"4"

الدُّروب التي تأخذ بيدي
تُوشوشني عثرة مطرك البعيدِ .
نحاسك يُوْسق صمتك المُرَّ
ويشهق بخزف شموسكِ .
بردُكِ الفاصل يخبِّىء البراعمَ
حتى يكشف عن لمعة وجهك
المقصُوصِ من زُرقة الخصبِ .

"5"

نهاركِ يوزِّع جوقة الجهاتِ ،
يطلق فخاخ حلمه عاليا
ويقذف مرح عربته الصغيرةِ
في غيبوبة الإسفلتِ .

عيونٌ تتفرّجُ على أصداف السماء
من شناشيل ليلكِ
وتنثر في هبة النسيانِ
أريجكِ الهامسَ .
"6"
كواكبكِ المعلَّقة في أقاصي الكونِ ،
فجرك الذي يسرح في مياه الأشياءِ
توغّل بعيدا
في كحل الصبايا .
و صدرك الرقيق جرارٌ
تفيض عن ينابيع ساحلها ،
ترمي قبائل الجنوبِ
بعرْي تيجانكِ .
"7"
غيمك فرس صاهلٌ
بين مغارات تتفيأ قطعان شهوتكِ .
وخفاؤك الهائل
يعرّي أعين الهدوء الوسيعةَ ،
يضيء معدن نهارك النعسانِ .
و يحفرْ في مفاتيح أعماقي
فداحة غيابكِ .

وداعا أبي

مثقل بالطَّيش نهارِي ،
أعماقي اندلقت ورقة ورقةً
فوق جرار عشبي ،
وأنا أحصي
صخب مكاني ،
أقرأ خرائط الظهيرةِ
وهي تسكبُ الهمسَ
على غرف حدائقي .
كنت أمضي وحيدا
خلف خيطٍ يدوّن الأقاصي ،
حتى أتقرى أبي هناكَ
منثوراً
على خزف كنوزي ،
أمسح عن روحهِ
سهر الترابِ ،

أمدّ أصابعي إلى كفِّه العميقةِ
ونحن نعدّ وميض الطيرِ
وحزن أمي
في لهو الشجرةِ ،
كنا نطلق سلال الغيومِ
ونحفر جدولاً
تحت أقدام القرى ،
نرسم في الهواءِ
زوبعة اللّونِ
ونصنع جسورا للزنابق وللنملِ .
وعند المساء لمّا كنت أودّعهُ ،
وأنا أنهب المراثي
من وجههِ ،
كان يُدغدغ رأسي بالحقولِ
ويمنحني حجرا صقيلا
أودعه تحت درج روحِي ،
كنت عندما ألقي بجسدي
تحت لهب النجومِ
يلمع في ذاكرتي رنين جليل
يطرق باب حلمي
لأنامْ .

الخيط الأخير

طريّاً يتوسّدني دمُ الجمرةْ ،
وشفيفاً تسكب النُّجومُ
غصنها الطّالعَ
في مشهدي النّهائي .
ما حملتُ عن العراءِ
حُطام خيْلي ،
وما رفعتُ عن حافّة النّهْرِ
بكاء الرّيحْ .
كنتُ أمسك بالخيط الأخيرِ ،
وأمدُّ في زبد المغيبِ
صمْتَ طريقي .
أُشعل جلد المياه البعيدةْ ،
وأعلّقُ صورة النّارِ

في الرَّسائلِ .
في طرفي القصيٍّ ،
أطوِّقُ زهر الحجر بالنُّعاسِ .
هياكلي تهطل حُمَّى
وأجراساً صقيلَهْ
نحو دُخانِ السَّواحلِ .
أهزُّ سهري في القرى
بهتْكِ الرُّعودِ
ولْحمِ العاصفهْ .
وقتي مازال خراباً ،
ونهاري على حالهِ
شواهدَ موتٍ
فوق لوْحِ المكانِ ،
وأطرافُ شتائي
تدلَّتْ على صدر التِّلالِ ،
والشَّجرُ الذي تقاسمْتُهُ
خلف شهقةِ غُباري ،
حمل سُعال الأرضِ
وسار في تعب الأرصفهْ .

كلَّما غام ليلي في شمس النَّايِ ،

أمضي إلى رغيفِ الإرْثِ ،

حاملا عزلةَ نخيلي

تَلْفَحُهُ

أثارُ الأمكِنهْ .

حلمٌ صغير

كيفَ للأشجارِ
أنْ تعبرَ
ظِلَّ نافذتي
هذا الصَّباحْ .
كيف للرِّيحِ
أن تهُشَّ
طيورَ الغابة
هذا الخريفَ .
وكيف لي
أن أناوشَ
أطيافَ الشَّمسْ
كيف لي
أن أرتِّبَ
كلَّ
هذا العراءْ .

أَنخاب

ثمّةَ

في جهةٍ ما

كؤُوسٌ

من نارٍ

وبضع قهقهاتٍ

ووجوهٌ تقطرُ

كالرّذاذِ .

ثمّةَ

سيّدةٌ توزّعُ

قلبها

تنسُجُ الفضاءَ

بالعويلْ

الغُزاة

كلّما أوقدْتُ
شموعَ الرُّؤيا
في أقصى الطريقْ
كلما سيّجْتُ
ربوعَ الوادي
نخيلاً
أدركني الخريفْ
خلسةً
في منعطفِ الحُلمِ،
راودتني
سنابكُ خيلهمْ
بآلافِ الطّعناتْ .

صديقي لُوركا

السّاحةُ فارغةٌ

إلاّ من نُجيمةٍ

ضيَّعتها الرِّيح

وحنجرةٍ مبحوحة

تُنادي :

لوركا .. لوركا ،

البحرُ يسافرُ

خلف ظلّ الخديعةِ

في هدوءْ

والموجُ

يُنادي :

لوركا .. لوركا

والطّفلُ الغجريُّ

على بوّابةِ اللّيلِ

يُغنّي .

من هنا مرَّ الشّاعرُ

إلى دمهِ

بين أقواسِ قمرٍ

وخطى الفجرِ

في عُرْيِ الماءْ.

أقنعةٌ تتربّصُ بي

أقنعةٌ تتخطّفُني برنينِ الطّلقاتِ ،
تستعيدُني جرساً يجري خلف
عُمري الخائفِ موجةً موجاتِ
ترتّبُ غفْلةَ معاطفي
اللاّمعةِ كالأنصالِ ،
أصابعُها تتلبّسُ العُشبَ
والبرق ،
تغسلُ ضفائرَ اللّوْنِ
المُتفجّرةِ مرايا كالحاتِ
وضحِكاً يتَخَثّـرُ على رفوفِ الزوالِ ،
زمني يرمي بنردِهِ المفضوحِ
على سطوع الأصواتِ
وليلي تشقّقَ عن جمرةٍ

تشتعل في أرقِ التّرابِ ،

ظلالِي التّي علّقت مفاتيح النومِ

عاليا على خاصرة الشجراتِ

مازالت تسكن أنفاس بئر مجروحةٍ

بوهج الشّمسِ ،

برنّة القمرِ ،

وهي تلاعب أغصان الرّيحْ.

هكذا يسيل الضّوءُ

من أقدامها ،

ليعود بعد الرحيلِ

إلى شحوبِ مطر مجهولٍ

متوسّداً خيانة البردِ

بحجم امرأة مرفوعة القلبِ ،

بجنون تسقط وجوها

كالحُمى غامضاتٍ

فوق طاولاتٍ تخبّىء ضحكةً صغيرةً

وقاسيهْ

تماما كأصيصِ الأمواتِ .

هكذا كنت أحلّق إلى آخر غيمٍ

في زُرقة النَّدى ،

حتى أحفن الطفولهْ .

لكن دائما كنت أتعثَّرُ ،

بشوارعها مرّة ثانيهْ

وهي تُرتب أنيابها

وسط الساحاتِ ،

تثرثر بأفكارٍ خاسرهْ .

بقايا مكان

خطواتُ هذا اللّيلِ مبعثرهْ
بين الأشجار البعيدهْ
أسير بين الصوتِ
يداً مرتجفهْ
وعاطِفَةً مُجرَّحهْ،
أهز ارتعاش الأزرقِ
على نهر الرخامِ
كي تصل شمعة المغيبِ
هادئةً كالرَّنينِ .
منذ الهدوء الأوّلِ
وأنا الطّائر المحمومُ
بين الأزقهْ
لي حصتي من تمر القوافلِ

لي وجع الفوانيسِ
وحنّاء الجاراتِ
هكذا أمضي في الشّرقِ
حتى يتوّجني الوقتُ
صباحا للفراغ القادمِ .
الفتيات في الأعراس
يُنشدن تصاوير الأماسِي
والجدّات بقمصانهنّ المبثوثةِ
بريش اللّونِ
يتملّيْنَ انعزال الحقولِ
وصفير المعاولِ
في جيد التّرابِ .
وفي ظهيرة الدرسِ
أفتح جُغرافيا الكتابِ ،
أراقص وجوه الأشكالِ
وشفاه الحقائبِ ،
وأقطع صحارَى الكلامِ
عائداً
إلى جرس الساحةْ

سيقان الدّواب مُضمّخهْ

بسواد القَشّ

فيما الرجال يتحلقون

حول الزّيتِ

هاشّينَ

مجرى الأمكنهْ

بخطى الأزمنهْ .

وفي اللّيل

لا تعود الأشجار مبعثرةْ .

رماد النّاي

كمثلِ الصَّهيل يشقُّ
في الصحراءِ
عصا الريحِ
يزرع شهوة الصباحِ
بذرةً .. طيوراً
ونوافذَ
في الرّمالِ المعلّقاتِ
في البحر الطّريّ
يتنفس
لؤلؤ اليدينِ ،
خبز الصيادين الخارجينَ
من معاطف الملحِ
وجمر الأيامِ .

مقامٌ
يتسكّعُ
بين رماد النّاي
والهدب الصبيٍّ .
خلف الأيائل النائحاتِ
بعبق التلالِ
بين سرّ التويجِ
وخواتم الليلِ
على تقاسيم نخل القادمينَ
من منتصف الوليمة ،
جلس ...
يرشّ النار بالحطبِ
سار خطوتينِ
بين عباءةٍ ترعى
هبوب الغيمِ
وخيطَ الحكمةِ ،
ألقى على الأرضِ
شظايا بوحهِ
مرّغ وجهه
في حقول الطّينِ .. وغاب .

من حصاد الموت

-إلى روح محمد القيسي-

يجيءُ مُكتظا
بهدير سكْرته ،
متلألئاً بالخجلْ .
بين ضوءِ عينيهِ
ينعس ترابٌ ساخنٌ
ويرقد رنينُ التّبغ والكُتبِ
في اشتعال غُبارهِ ،
بحرُهُ الخريفيُّ
يأتي عبر قلبهِ
مغسولا بحيرْتهِ ،
يمدُّ شقاءَ صباحِهِ
ليحْزنَ ،
ليمزّق قميصَ نهارهِ .

يرى بلداً
يمرُّ بجروحِ حكمتِهِ
ولا يموتُ .
في حواسه الغامضة
ينتفض نهرُهُ السرّيُّ
مبتهجاً
بأمطار كلامهِ .
أعشابُ الأرضِ باردةٌ
وهي تصعد
سلالم عزلتِهِ
نحو متاهاتِ العطشْ .
هواءُ ليلهِ
خوفٌ واندهاشٌ
وحصادُ موتْ ،
لا طريق ترعى
أنفاس وردتهِ
صوب مساءٍ عريضْ .
لا شُروق ينبُتُ
من لحْمِ غيمتِهِ المُقفلهْ .

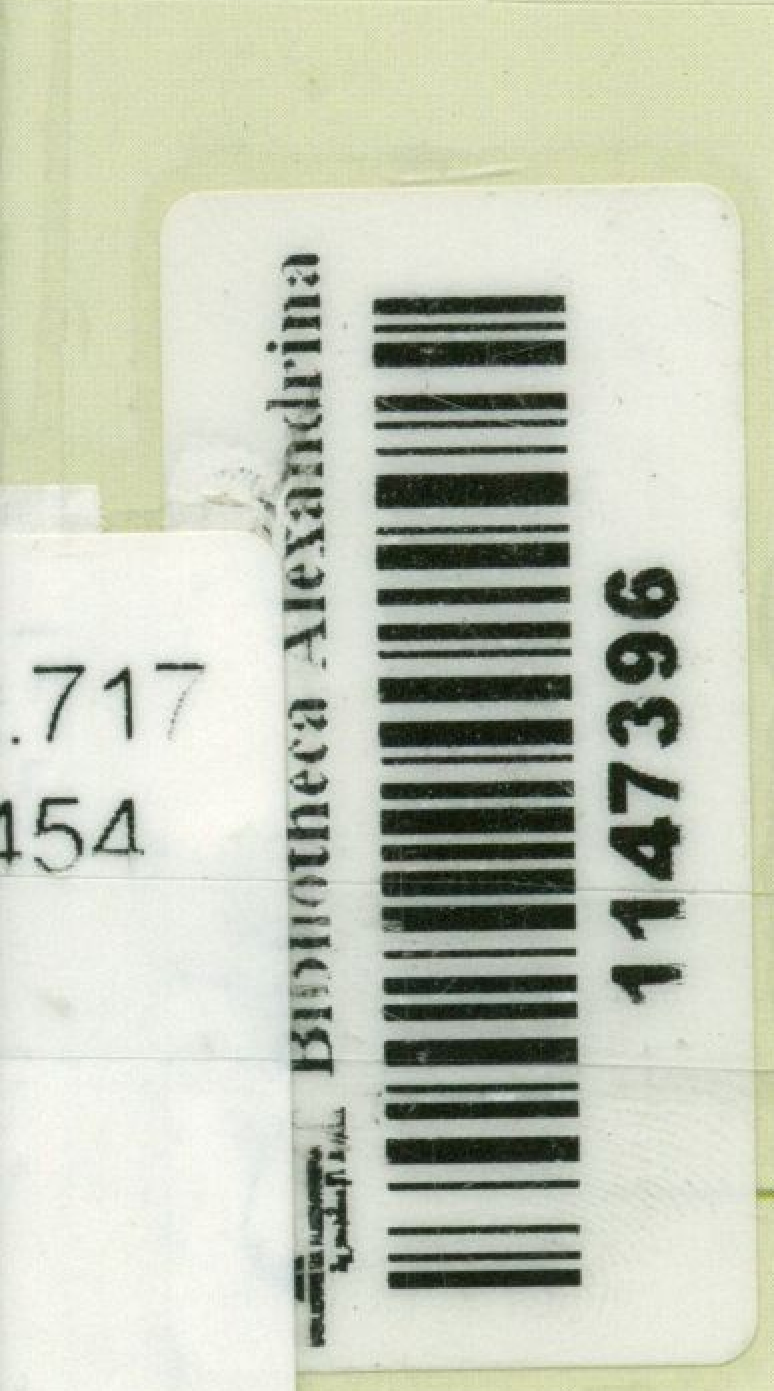
في البعيدِ
شهقته توزّعَ الجهاتْ .
تمضي بقلقِ نساءٍ
يتّكئن على جَمْر قبرهِ
طاعناتٍ
في الصّلاةِ عليْهِ .

الفهرس



وُلد بشفشاون سنة 1972.
عضو اتحاد كتاب المغرب .يعمل مراسلا لجريدة العلم بشفشاون .
حاصل على جائزة إذاعة طنجة للإبداع الشعري لسنة 2007.

طريا يتوسدني دم الجمرة،
وشفيفا تسكب النجوم
غصنها الطالع
في مشهدي النهائي.
ما حملت عن العراء
حطام خيلي،
وما رفعت عن حافة النهر
بكاء الريح.
كنت أمسك بالخيط الأخير،
وأمد في زبد المغيب
صمت طريقي.
أشعل جلد المياه البعيدة.
وأعلق صورة النار
في الرسائل.



الثمن :
20 درهما